ليف تولستوي

العجوزان

ترجمة
القس/
موسى وهبه مينا

ليف تولستوى

العجوزان

طبعة ثانية

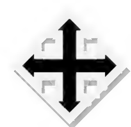
التربية الكنسية
بكنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
خمارويه - شبرا - مصر

العجوزان

العجوزان
ليف تولستوي .
ترجمة القس موسى وهبه مينا .
طبعة اولى ١٩٧٢ .
طبعة ثانية ١٩٨٣ .



ابينا المكرم رئيس الأساقفه
البابا الانبا شنوده الثالث
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



فقالت له المرأة : يا سيد أرى أنك نبى . آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل ، وأنتم تقولون أن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه .

فقال لها يسوع : يا امرأه صدقينى أنه تأتى ساعه لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب ... ولكن تأتى ساعة وهى الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق . لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له . الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا .

يو ٤ : ١٩-٢١ و٢٣ و٢٤

العهـــد

أتفق العجوزان على الحج الى أورشاليم معا . وتاقت نفساهما الى عبادة الله فى المدينة المقدسة . كان أولهما أفيم تراسيش سيفيليف . وهو فلاح على جانب من الثراء . أما صاحبه فكان أليشع بودروف وهذا لم يكن له من الثروة مثل حظ رفيقه .

كان أفيم معروفا بين الناس بالأستقامة والجد والحزم . لا يشرب الخمر ، ولا يدخن ولا يتعاطى السعوط (النشوق). ولا يذكر احد من الناس عنه انه استعمل لغة فظة سوقية ، أو لفظاً قبيحاً مستهجنا . ولعل دماثة أخلاقه كانت سببا فى أن يرتقى منصب العمدة مرتين ، أدى فيهما واجبات الوظيفة بأمانة . وبعد أن ترك هذا المنصب ، لم يستطع أحد ان يجد فى عمله ثغرة يلومه من أجلها .

وفضلاً عن ذلك فقد كان أفيم رب أسرة كبيرة ، له ابنان وعدد من الاحفاد أحدهم قد تزوج حديثا . والجميع يعيشون تحت سقف بيته . ورغم كبر سنه فقد كان موفور النشاط ، معتدل القامة . ومع ان لحيته كانت طويلة الا أنها ظلت بعد بلوغه الستين دون أن يتسلل اليها الشعر الأبيض .

أما أليشع فلا يمكنا أن نصفه بالغنى أو الفقر ، فقد كان وسطا بينهما . اشتغل بالنجارة سنوات طويلة ، فلما تقدمت به السن آثر ان يستقر فى داره ، واتجه الى تربية النحل، التى كانت تدر عليه من الرزق ما يكفي حاجاته . وكان

له ابنان كرفيقه أفيم ، ولكن احدهما ترك القرية وذهب يضرب فى مناكب الأرض سعيا وراء الرزق . اما الثانى فظل الى جوار أبيه .

كان أليشع يتميز برقة القلب . والميل الى المرح ولا بأس عنده أن يشرب الخمر أحيانا ، ويتناول السعوط احيانا أخرى . كما كان يحب الغناء . ولكنه كان رجلا مسالما يرتبط بعائلته وجيرانه بعلاقات طيبة . كان أليشع قصير القامة ، أسمر البشرة . تنسدل من وجنتيه وذقنه لحية متماوجة ، الا انه كان - مثل شفيعه وسميه النبي أليشع - اصلع الرأس تماما .

كان العجوزان قد تعاهدا على القيام بهذه الرحلة منذ أمد طويل .. بل وأعدا العدة للارتحال معا الى أورشليم . ومع ذلك فلم يحققا هذا الأمل ، فأفيم لم يجد فسحة من الوقت للوفاء بهذا العهد . كان على الدوام كثير المشاغل ، وكلما انتهى من عمل بدأ عملا آخر . فقد كان عليه فى بادىء الأمر أن يعد الترتيبات اللازمة لزواج حفيده ، ثم كان لابد له أن ينتظر عودة ابنه الأصغر من الجيش ، ولم يكد ينتهى من ذلك حتي بدأ العمل فى بناء كوخ جديد ...

وفي احد الأعياد تقابل الرجلان خارج هذا الكوخ ، وجلسا على جذع احدى الأشجار ، وكان لابد أن يتطرق حديثهما الى ذلك العهد الذى اتفقا عليه . وقد استهل أليشع الحديث بقوله : حسنا ، متى يمكننا أن ننجز عهدنا أمام الله ؟

واكفهر وجه افيم وهو يجيبه فى شىء من الجدية والوقار: كان بودى ان نحقق هذا الوعد .. ولكن ما الحيلة ؟ لابد ان ننتظر حتى الصيف .. لقد كانت هذه السنة بالنسبة لى عصيبة قاسية. عندما بدأت فى بناء هذا الكوخ كنت أظن

أن البناء لن يجاوز مائة روبل . ولكن .. تصور لقد صرفت حتى الآن ما يزيد على الثلاثمائة . وما زال فى دور البناء لم ينته بعد .. لابد أن ننتظر حتى الصيف . وفي الصيف ان شاء الله ، لابد ان نذهب دون تردد .

ولكن أليشع أجابه فى اصرار : يبدو لى أن قرارنا لا يحتمل التأجيل أكثر من ذلك ، بل يجب أن نبدأ رحلتنا فى الحال .. ولا شك ان الربيع هو انسب الأوقات للقيام بها .

-لا انكر أن الوقت مناسب جدا ، ولكن ما حيلتى فى هذا البناء ؟ لا يمكنى أن أتركه على هذا الحال .

ونظر اليه أليشع نظرة فاحصة لا تخلو من الاحتجاج ثم قال له : كأنه لا يوجد من يقوم بهذا العمل بدلا منك !! ان ابنك يا صديقى يستطيع أن يقوم بالاشراف على استكمال البناء .

-ولكن .. كيف ؟ لا يمكننى أن أعتمد على ابنى الأكبر .. فى بعض الأحيان تميل نفسه الى الخمر فيشرب أكثر مما ينبغى .

-اسمع يا جارى .. عاجلا أو آجلا لابد أن ننتقل من هذا العالم ولابد لهم ان يدبروا أمورهم بأنفسهم .. الآن يمكنك أن تعطى الفرصة لولدك حتى يبدأ فى تحصيل بعض الخبرة فى الحياة . وسرح افيم ببصره فى الفضاء ، وقد بدا عليه التفكير العميق، ثم أجاب أليشع بقوله : هذا صحيح .. ولكن .. فى المعتاد عندما يبدأ المرء عملا ما فلا شك أنه يحب أن يرى ثمرة هذا العمل .

ولكن أليشع عاد يقول فى شىء من التبرم والضيق : يا صديقى .. اننا لا نستطيع أن نؤدى كل ما يجب علينا أن نفعله .. اسمع .. منذ عدة أيام كانت النساء فى دارى قد انهمكن فى تنظيف البيت ومسحه استعدادا لعيد القيامة . كانت الجلبة لا مثيل لها هذه تعمل هنا وتلك تلتمس شيئا هناك .. ولم يتم المطلوب .. وعندئذ لم تتمالك الكنة الكبرى من زوجات أبنائى نفسها ، فصاحت الحمد لله أن العيد لن ينتظر حتى ننتهى نحن من عملنا .. ومهما فعلنا فلن يتم استعدادنا كما ينبغى أن يكون .

واستمع أفيم الى قصة جاره فى صمت ووجوم ، وبعد لحظة من السكوت أجاب بقوله : ولكني أنفقت الكثير من المال على هذا البناء ، والرحلة كما تعلم تحتاج الى الكثير من النفقات . هل يستطيع المرء أن يبدأ الرحيل وهو خاوى الوفاض لا يملك شروى نقير .. لابد لكل واحد منا أن يحمل فى جيبه ما لا يقل عن مائة روبل .. وهذا ليس بالمبلغ القليل ...

وضحك أليشع وهو يقول : أيها الرجل العجوز .. ما هذا الكلام ؟ عندك عشر أضعاف ما أملك ، ومع ذلك تتكلم كأنك فى حاجة الى المال .. لابد أن تحدد موعد الرحلة ، ومع أنى لا أملك شيئا فى الوقت الحالى ، الا أنى أعتقد أنه فى الامكان أن أجمع ما يكفي حتى ذلك الوقت.

وابتسم أفيم فى اشفاق وهو يرنو بنظره الى صاحبه ، ويجيبه بلهجة لا تخلو من السخرية : عجبا ! ما كنت أعلم أنك على هذه الدرجة من الثراء !.. وكيف يمكنك ان تحصل على هذا المبلغ ؟

-يمكننى أن أجمع شيئا من هنا وشيئا من هناك . واذا لم يكف ما فى المنزل ، فقد استقر رأيى أن أبيع عشرة مناحل الى جارى . انه يتمنى ذلك وقد سعى كثيرا لشرائها .

ولكن أفيم اجابه فى تحذير : ولكن اذا احتشدت مناحلك بالنحل هذا العام فسوف تندم على اتخاذ هذه الخطوة .

ورفع أليشع عينيه فى استنكار وهو يقول : اندم ؟! لا يا جارى العزيز ، لم أندم على شىء فى حياتى سوى خطاياى .. أندم على هذه الأمور ؟ لا يوجد يا أخى ما هو اغلى أو أثمن من الروح .. ماذا يستفيد الانسان لو ربح العالم كله ، وخسر نفسه ؟!

واستسلم أفيم لمنطق صديقه فقال : هذا صحيح .. ولكنه أستدرك قائلا : ولكن ذلك لا يعنى أن نهمل حاجات البيت .

وعقب أليشع على ذلك بجواب قاطع : ولكن ما هى النتيجه ان أهملنا أرواحنا ؟ انها أسوأ بكثير . . لقد اخذنا عهدنا امام الله . وعلينا اذا أن نذهب .. والآن - وأقولها جادا – لابد أن نذهب .

بداية الطريق

وهكذا نجح أليشع فى اقناع صاحبه بالوفاء بالعهد الذى قطعاه . ففي صباح اليوم التالى وكان افيم قد قلب وجوه النظر فى الموضوع ، اقبل اليه قائلا : لقد كنت على حق فلابد أن نذهب ، والحياة والموت فى يدى الله ولابد لنا أن نقوم بهذه الزيارة المقدسة ونحن مازلنا على قيد الحياة وفينا جلد وقوة .

ولم يكد ينقضى الأسبوع ، حتى كان العجوزان قد أخذا أهبة الاستعداد . كان لدى أفيم المبلغ الكافي . فقد احتجز لنفسه مائة روبل ، واستودع زوجته مائتين .

واستكمل أليشع استعداده أيضا . باع الى جاره عشرة مناحل مهما تكاثر فيها من النحل قبل حلول الصيف وأخذ ثمنا لها سبعين روبلا . أما بقية المائة روبل فقد استطاع ان يقتطعها من كل عضو من افراد أسرته على قدر طاقته حتى لم يترك فى أيديهم شيئا . لقد أعطته زوجته كل ما ادخرته من اجل جنازتها ، كما سلمت اليه كنته كل ما كان معها .

وقبل بداية الرحلة ، أعطى أفيم ابنه الأكبر تعليماته المحددة عن كل شيء ، كيف يتم بناء الكوخ وتركيب السقف . لقد فكر فى كل شيء وأعطاه الترتيبات التى يجب أن يتبعها فى كل منها . أما أليشع فقد نبه على زوجته أن تحرص على الفصل بين جماعات النحل وبين المناحل التى باعها ، وان تتأكد من أن يحصل جارهم على جميع المناحل التى اشتراها دون خداع أو مراوغة . أما فيما يختص بتدبير شئون المنزل فقد اكتفي بقوله يمكنكم أن تراعوا عمل

الواجب حسب الحاجة، فأنتم سادة البيت وتدركون مصلحتكم وما يجب أن تؤدوه . هكذا اعد الرجلان عدتهما للرحيل ، بعد أن صنع لهما الكعك ، واعدت لهما حقائب سهلة الحمل على الظهير للطريق كما أعدت لهما شرائط الكتان التى اعتاد الفلاحون الروس ان يلفوها على سيقانهم بدلا من الجوارب . وانتعلا أحذيه من الجلد كما آخذا معها من باب الاحتياط أحذية مضفرة . وقد رافقهما افراد الأسرتين حتى مشارف القرية حيث تم الوداع وبدأ العجوزان رحلتهما المقدسة .

كانت تبدو على أليشع علامات المرح ، فلم يكد يبتعد عن القرية حتى نسى كل ما يتصل بشئون الأسرة . ووجه كل همه أن يدخل البهجة الى نفس رفيقه ، وأن يتحاشى كل كلمة شريرة حتى لا تخرج احداها من شفتيه حتى يصل الى غايته ثم يعود الى بيته فى محبة وسلام . وفي أثناء الطريق كان أحيانا يتمتم بينه وبين نفسه بصلوات يرفعها الى الله ، واحيانا أخرى يسرح بفكره فى حياة هذا القديس أو ذاك بقدر ما تعى ذاكرته . واذا التقى بانسان فى الطريق ، أو عرج على مكان ما ليقضى فيه الليل ، كان يحاول على قدر طاقته أن يسلك بطريقة مهذبة . وأن يصطبغ حديثه بكلمة الله ... وهكذا مضى فى رحلته راضى النفس قرير العين . ولكنه فشل فى شيء واحد ، فشل فى الاقلاع عن عادة استخدام السعوط ، لقد ترك وراءه علبة السعوط ، الا أنه كان تواقا اليه ، حتى قابله أحد الرجال فى الطريق . واعطاء قبضة من السعوط كان يختلس منها القليل بين الفينة والفينة ، وهو يتخلف عن رفيقه حتى لا يراه ولا يدخله فى تجربة .

وسار أفيم - أيضا - فى نشاط وعزم ، لا يرتكب اثما ، ولا ينطق عبثا ولكن قلبه كان مثقلا بالهم . كانت أمور البيت تشغل باله وكان يفكر كثيرا فيما يمكن أن تسير عليه الأمور فى داره . ويسائل نفسه ان كان قد نسى ان ينصح ابنه بما يجب أن يفعله فى هذا الأمر أو ذاك . هل سيؤدى ابنه هذه الأمور كما ينبغى ؟ وبينما يحث خطاه فى المسير ، كان يتطلع الى حقول البطاطس الذى بدأ يظهر ، والعربات وهى تنقل السماد ، فيعود بالذهن الى ابنه ويقلب وجوه النظر فيما اذا كان ابنه سيؤدى هذه الأمور كما اخبره أم لا ... كثيرا ما كانت تخالجه الرغبة فى العودة ، حتى يرشد ابنه كيف يقوم بهذه الأعمال .. أو لعله سيعملها بنفسه .

فراق ...

قضى الرجلان خمسة أسابيع على هذا المنوال حتى بليت أحذيتهما ، وشعرا بالحاجة الى شراء أحذية جديدة . كانا قد وصلا الى حدود روسيا الصغرى ، التى يطلقون عليها الآن أوكرانيا .

منذ ان غادرا قريتهما ، كان لابد لهما طوال هذه الفترة ، أن يدفعا ثمن الطعام وأجر المبيت ولكنهما عندما وصلا أوكرانيا كان السكان الطيبين يتنافسن على ضيافتهما ويستقبلونهما فى أكواخهم ، ويقدمون لهما الطعام فى سخاء دون ان يتقاضوا أجرا عن ذلك .. بل وأكثر من ذلك كانوا يدسون فى حقائب المسافرين شيئا من الخبز والكعك يعينهما على مشقة الطريق . واستطاع العجوزان ان يقطعا حوالى خمسمائة ميل دون أن يتكبدا شيئا من المال.
ولكنهما حينما عبرا حدود اوكرانيا وجدا سكان الاقليم التالى قد اخذت بخناقهم أزمة عاتية ، لأن محصول أراضيهم لم يف بحاجاتهم . ومع ذلك فقد واصل الفلاحون الكرماء دعوة الرجلين الى المبيت مجانا أما الطعام فلم يكن مناص من تقاضى ثمنه . بل لقد اضطرا فى بعض الأحيان ان يعرضا ثمنا طيبا للخبز ومع ذلك لم يتمكنا من شرائه او الحصول عليه . اينما توجدا كانا يسمعان الشكوى المريرة من ضياع المحصول .. الأغنياء فيهم اخذوا يفقدون كل مالهم .. بدأوا فى عرض ممتلكاتهم للبيع ، وعاش متوسطى الحال فى املاق وفقر مدقع . اما الفقراء الذين لم يهاجروا من هذا الاقليم فلم يكن أمامهم سبيل سوى

التسول ، فلقد رفض بعضهم ان يريقوا ماء وجوههم ، فأخلدوا الى بيوتهم حتى واتاهم الموت جوعا . فى الشتاء لم يجدوا ما يأكلون سوى القشور والنباتات البرية .

في احدى الليال التى قضياها فى احدى القرى ، اشترى الرجلان خمس عشرة رطلا من الخبز . وبعد انقضاء الليل نهضا باكرا جدا قبل أن تشرق الشمس وبدأ المسير حتى يقطعا أطول مسافة ممكنة قبل أن تشتد حرارة النهار. وعندها قطعا ما يقرب من ثمانية اميال أتيا الى مجرى من الماء ، فجلسا الى جواره يستريحان ، وانتهزا الفرصة ليملآ اناءيهما بالماء ، وغمسا فيه بعض الخبز الجاف واخذا يأكلان . وبعد أن اكلا وشبعا ، أخذا فى تغيير شرائط السيقان . وبعد قليل أخرج أليشع علبة السعوط ليتنشق ، فهز أفيم رأسه اسفاً وهو ويقول :

-كيف لا تستطيع ان تبطل هذه العادة الرديئة ؟

ولوح أليشع بيده فى يأس قائلا : هذه العادة الشريرة أقوى منى .

وفى النهاية نهض كلاهما واستأنفا المسير . وبعد أن قطعا عدة أميال وصلا احدى القرى واخترقاها بينما كانت حرارة الشمس قد اشتدت فنال التعب والاعياء من أليشع وأراد أن يستريح بعض الوقت ، وأن يطفيء ظمأه بشىء من الشراب . الا ان أفيم رفض ان يتوقف .. ولا شك أن أفيم كان أقوى أحتمالا من رفيقه فى السفر ، كما كان اسرع خطوا مما جعل أليشع يجد مشقة شديدة

فى متابعته ، وعناء قاسيا فى مسايرته ، فصاح اخيرا : لو استطعت - فقط – أن أحصل على كأس من الشراب ..

وأجابه أفيم فى حزم وصرامة . حسنا يمكنك أن تأخذ لنفسك كأسا ، أما انا فلا أريد شيئا .

ولم يستطع أليشع أن يواصل المسير . فتوقف هنيهة ثم قال : يمكنك أن تمضى قدما ، اما انا فسأجرى الى ذلك الكوخ الصغير ألتمس شيئا من الشراب ، ثم الحق بك بعد لحظات قليلة ..

فتطلع اليه أفيم مليا ثم أجابه : حسنا . ولم يزد على ذلك شيئا ومضى فى الطريق وحيدا لا يلوى على شىء . بينما عرج أليشع الى الكوخ الذى أشار اليه .

كان كوخا صغيرا تكسو جدرانه طبقة من الطين . وكان اللون قاتما فى الأجزاء السفلى من الجدران أما العليا منها فقد كان هناك بقايا للطلاء الأبيض ، ولكن طبقة الطين قد انتشرت فيها الشقوق . من الواضح أن الطلاء قد عفا عليه الزمن . وقد تساقطت قطع من الطين من أحد جوانب السقف ... كان على أليشع أن يعبر فناء واسعا حتى يصل الى مدخل الكوخ . ودلف أليشع الى الفناء حيث رأى مقعداً من الطين يمتد الى جوار الجدار . وعلى الأرض بجوار المقعد الطويل كان يرقد رجل نحيل الجسم لم ينبت بعد شعر لحيته ، وقد دس قميصه فى سرواله كما هى عادة السكان فى أوكرانيا ... لا شك أن الرجل مستغرق فى نوم عميق ... ولا شك انه كان يلتمس الظل حين نام أما الآن فقد

استدارت الشمس وها هى تصب لهيب أشعتها عليه ... ولكنه يبدو مستيقظا ، ومع ذلك فهو مازال راقدا ... تقدم اليه أليشع ودعاه ، وطلب منه كأسا من الشراب ... الا أن الرجل لم يحر جوابا .

وفكر أليشع فى نفسه قائلا : اما أن يكون الرجل مريضا أو خشنا فظ الطباع .. وواصل أليشع تقدمه نحو الباب ثم طرق طرقا خفيفا ، ولكنه لم يسمع سوى صوت طفل يبكى فى الداخل بكاء عاليا . فامسك بحلقة الباب واخذ يقرع بشدة وهو يصيح : هيه .. يا جماعة .. ولكن أحدا لم يجب نداءه . فقرع الباب مرة أخرى بعصاه وهو يرفع صوته : هيه ، أيها المسيحيون ... يا جماعة المؤمنين ... وتبددت صرختة أدراج الرياح وعاد المكان يخيم عليه الصمت المطبق . وأحس بالضيق ينهش صدره ، فصاح ثالثة : يا عبيد الله .. ولكنه لم يتلق جوابا ...

واستدار أليشع لكى يرجع من حيث أتى ، ولكنه فى تلك اللحظة خيل اليه انه سمع انينا خافتا ينبعث من الجانب الآخر من الباب ، وترامى الى أذنيه خافتا منهوك القوى ... يا الله لابد أن كارثة ما قد اصابت هؤلاء الناس !! يجدر بى أن ألقى نظرة فى الداخل .

ودفع أليشع الباب ، ليدخل الكوخ .

مغامرة

عندما أمسك أليشع بحلقة الباب ، وجد انه لم يكن محكم الاغلاق فدفعه برفق ودلف الى الممر الضيق فرأى فى مقابله بابا مفتوحا يؤدى الى احدى الغرف ، والى يساره فرنا كبير الحجم ، وأمامه على الحائط يستند حامل الايقونات وقد وضعت منضدة صغيرة أمام الأيقونة ، وبجوار المنضدة مقعد خشبى طويل جلست عليه امرأة عجوز أسندت رأسها الأشيب على المنضدة .. وبالقرب منها وقف صبى صغير ، هزيل الجسم ، ممتقع الوجه أصفره ، كأنه قد صب من الشمع ، وقد انتفخت بطنه انتفاخا عاليا لا تخطئه العين ...

لا شك أنه كان يطلب من المرأة شيئا ما ، ويطلبه بالحاح لانه كان يتشبث بأكمامها ويشدها باصرار بينما يرتفع صوته الواهن الضعيف يبكى ويسترسل فى البكاء .

دخل أليشع وتسمرت قدماه .. كان الهواء فى الكوخ فاسدا ، اذ كانت تنبعث منه رائحة كريهة . دار بعينيه فى كل أنحاء الكوخ فالتقت عيناه بامرأة اخرى رقدت على الارض خلف الفرن وقد أسبلت عينيها ، ومن حلقها تخرج حشرجة مخيفة ، تمد ساقها حينا ، ثم تعود وتجذبها حينا آخر . ويبدو أنها لم تكن لها قدرة أن تتحكم فى هذه الساق فاذا بها تتركها تتهاوى من جانب الى آخر . ولا شك انها كانت مصدرا للرائحة النتنة التى اقتحمت أنف أليشع . كان من الواضح أنها لا تستطيع أن تصلح من شأن نفسها ، ولم يكن هناك من يهتم بأمرها .. ولكن المرأة العجوز رفعت رأسها بصعوبة ، والتقت عيناها بالرجل

الغريب ، ثم قالت فى اعياء : ماذا تريد ؟ .. ماذا تطلب أيها الرجل . ؟ ليس عندنا أى شيء ..

ومع أنها كانت تتحدث بتلك اللهجة المعروفة فى أوكرانيا ، الا ان أليشع استطاع أن يتبين كلماتها ، فرنا اليها بنظرة وادعة وهو يقول : يا خادمة الله .. جئت أطلب جرعة من الماء .

وأجابته بخشونة : لا يوجد أحد ... لا أحد . ليس لدينا اناء نحضر فيه الماء .. توكل على الله .. دعنا فى حالنا وامض الى حال سبيلك ..

ولكن أليشع لم يخرج ، بل عاد يوجه السؤال للعجوز : أما يوجد بينكم واحد صحيح الجسم ، يستطيع أن يعنى بتلك المرأة ؟

ولم تكلف العجوز نفسها عناء النظر اليه ، بل اجابته فى برود : لا .. لا أحد .. هناك فى الخارج ابني ينتظر الموت ، وهنا نحن .. كلنا نموت .

كان الصبى قد كف عن البكاء عندما رأى الغريب ، ولكنه بدأ صياحه من جديد ، يقطع به حديث العجوز ، ويجذبها من أكمامها صارخا : هاتى لقمة يا جدتى .. لقمة واحدة .. أريد ان آكل ..

كان أليشع على وشك أن يسأل العجوز من جديد ، ولكنه توقف عندما دخل الرجل الذى رآه فى الخارج ، يترنح فى مشيته وهو يعبر الممر نحو داخل الكوخ بينما يستند بيديه على الجدار . ولم تكد خطواته تتجاوز عتبة الباب حتى سقط عند زاوية قريبة منها .. ولم يحاول أن ينهض ثانية ابتغاء الوصول الى

المقعد ، بل ظل جاثما فى مكانه لا يكاد يقوى على الكلام . فاذا تكلم انتزعت الألفاظ من بين شفتيه مهلهلة متقطعة ، كان يبذل فى ذلك جهدا عنيفا .. يدفع الكلمات من فمه تكاد تخرج معها أنفاسه اللاهثة .. وفي صبر وطول اناة استمع اليه أليشع . وهو يلتقط أنفاسه من كلمات الى أخرى قائلا : لقد أدركنى المرض .. والمجاعة .. ثم أشار نحو الصبى ، وارتفع نشيجه الباهت وهو ينتحب قائلاً : انظر .. أنه يموت .. من الجوع .

لم يكد يسمع أليشع هذا الانين ، حتى طرح حقيبته من على ظهره ، ونفض سيورها من ذراعيه ثم وضعها على الأرض . ورفعها على المقعد وتحركت أصابعه فى سرعة ومهارة تحل اربطتها وتجوز فى ثناياها ليخرج رغيفا من الخبز اقتطع منه جزءا لا بأس به ، ومد يده به الى الرجل . ولكن هذا رفض ان يأخذ شيئا من الخبز ، بل اشار بيده الى الصبى الصغير ، والى فتاة صغيرة كانت تزحف على بطنها بجوار الفرن ، وكأنه يقول : اعط الخبز للصغيرين .

ولم يجد أليشع مندوحة من الطاعة ، فمد يده بالخبز نحو الصبى ، الذى ما كاد يشم رائحة الخبز حتى مد ذراعيه فى لهفة وأمسك قطعة الخبز بكلتى يديه ، وأخذ يقضم فى نهم حتى أختفت أنفه الصغير فى ثنايا الخبز .. واقبلت الفتاة من وراء الفرن ، عيناها لا تفارقان الخبز فى يد أليشع حتى أعطاها نصيبها منه . وبعد ذلك كسر أليشع جزءا آخر أعطاه للمرأة العجوز ، التي أخذت تمضغ بصوت مسموع وهى تقول : يا ليت احدا يستطيع أن يخرج بعض الماء .. لقد جفت حلوقهم .. حاولت بالأمس أن أحضر بعض الماء ، او لعلنى حاولت اليوم

ذلك .. لا أذكر .. المهم لقد وقعت ولم أستطع أن أتقدم خطوة أخرى .. وربما ظل الدلو فى مكانه ، الا اذا كان أحدا قد أخذه .. وسأل أليشع عن مكان البئر ، وأطلعته العجوز على موقعه . فذهب ووجد الدلو فى مكانه ، فملأه وعاد ليعطيهم جميعا حتى شربوا .. وهكذا استطاع الصغيران مع المرأة العجوز أن يتناولوا المزيد من الخبز والماء .. اما الرجل فقد رفض ان يأكل قائلا : لا أستطيع أن آكل شيئا ..

طوال هذا الوقت ، كانت الزوجة الشابة ما زالت غائبة عن وعيها ، ولكنها تتقلب من جنب الى آخر بلا انقطاع . وفي النهاية مضى أليشع الى المتجر الوحيد فى القرية . واشترى بعضا من التبغ والملح ، وشيئا من الدقيق والزيت .. ثم وجد فأسا صغيرة قطع بها بعض الخشب واوقد النار . فاقبلت اليه الفتاة الصغيرة وأخذت تقدم له ما تسطيع من معونة ، فصنع شيئا من المرق وغلاه ، وقدم للأسرة الجائعة ما يسد رمقهم .

المجاعة

أكل الرجل قليلا ، وأصابت العجوز أيضا شيئا يسيرا من الطعام ، أما الصبى والفتاة فقد التهما طعامهما فى نهم ، ولعقا الطبق ولم يتركاه حتى صار نظيفا تماما ، ثم انكمشا ورقدا متلاصقين وقد أخذ كل منهما برقبة الآخر وران الكرى على جفونهما فاستسلما الى نوم عميق .

وعندئذ بدأ الرجل والمرأة العجوز يرويان لأليشع كيف انحدر بهم الحال الى هذا المآل . بدأت العجوز قصتها بقولها : كنا نعانى الفقر من قبل ، ولكن عندما ساء المحصول ، جمعنا منه بالكاد ما يكفينا حتى الخريف .. مضى الخريف واستهلكنا كل ما لنا ، ولم يكن لنا مناص من أن نلتمس من الجيران ، وأن نطلب معونة غير الجيران . على قدر ما نستطيع . فى بداية الأمر أعطونا ما نحتاح اليه ، ثم بدأوا يغلون أيديهم عنا ! .. ومع ذلك فقد أبدى البعض استعدادهم لمساعدتنا ، ولكن هؤلاء للأسف - كانوا لا يملكون ما يمكنهم أن يقدموه . وكنا نخجل من السؤال .. وغرقنا فى الديون . استدنا كل شىء ، المال والدقيق والخبز ..

وقطع الرجل حديث العجوز وهو يقول : ذهبت ابحث عن عمل أرتزق منه ، فلم أجد . فى كل مكان رأيت الناس - مثلى - يعرضون أنفسهم للعمل حتى يحصلوا على ما يملأ بطونهم فقط . وفي بعض الأحيان قد يحصل المرء على عمل مؤقت قصير الأجل قد يمتد الى نهار كامل ، ثم يتعطل يومين يبحث فيهما عن عمل بلا جدوى .. وعندئذ مضت العجوز ومعها الفتاة تتسولان بعيدا

، ولكنهما كانا يحصلان على النذر اليسير .. ان الخبز قليل نادر !! ومع ذلك فقد حاولنا ان نوزع الخبز على جميعنا ، حتى ليبقى على حياتنا - ناكل معا ونربط البطون معا ، وكلنا رجاء أن نقوى على هذا الصراع المرير حتى المحصول المقبل .. ولكن .. عند الربيع رفض الناس رفضا باتا أن يقدموا لنا شيئا .. ثم داهمنا المرض وساءت حالنا أكثر فاكثر فلم نجد ما نتبلغ به طول اليوم .. ولم يكن بد أن نعيش على الطوى يومين ... بدانا نأكل الحشائش ، وسواء كانت الحشائش او غيرها هى السبب فى ما أصاب زوجتى من علة ، فلست ادرى .. لم تستطع أن تقف على قدميها ، ولم تكن بى بقية من قوة ، ولم يكن لنا ما يمدنا بأسباب الحياة أو الشفاء .

وعادت العجوز تتمم القصة بقولها : وأخذت أناضل - وحيدة - فترة من الزمن .. وفي النهاية انهارت قواى ايضا فقد كنت أفتقر الى الطعام وغدوت فى ضعف شديد .. أما الفتاة فقد ضمر جسمها ، ونخر الاعياء عظامها . حاولت أن أغريها حتى تذهب الى الجيران ولكنها ابت أن تترك الكوخ بل زحفت الى ركن الكوخ وانزوت قابعة هناك ..

بالأمس الاول. أتت الينا احدى الجارات تفتقدنا ، ولكنها ما أن رأت ما نحن نعانيه من جوع ومرض حتى أدارت ظهرها ومضت .. لقد كان لها ما يكفيها من الشقاء والعناء ، لم يجد زوجها مناصا من الهجرة الى حيت لا تعلم ، أما هى فلم يكن لديها ما تطعم به صغارها .. وهكذا رقدنا كلنا ننتظر الموت .

أصغى أليشع لكل كلمة ، وأرهف أذنيه للانين الذى تسلل بين الكلمات ، ووصلت التنهيدات الى أعماق قلبه ليتردد صداها فى نفسه . لم تكد تنتهى القصة حتى كان قد استقر على قرار حازم ، لقد اقلع عن فكرة اللحاق بزميله ، وقضى الليل كله معهم . وعندما أشرق الصباح نهض من فراشه ، وأخذ يقوم بأعمال البيت ، كما لو كان البيت بيته هو . بمعونة العجوز ، عجن الدقيق ثم تركه حتى اختمر ، وأوقد النار .. ثم أخذ الفتاة الصغيرة واصطحبها الى أحد البيوت المجاورة ليقترض الأدوات الضرورية التى لا غناء عنها ، لان الكوخ كان قد تجرد تماماً من كل شىء .. من اجل الخبز اضطروا الى بيع أوانى الطهى والملابس وكل شىء ..

وهكذا أخذ أليشع يعد الضروريات ، صنع بعضها بنفسه واشترى البعض الآخر .. كان الوقت يمضى وهو لا يشعر ، وقد قضى معهم يوما ثانيا ثم ثالثا حتى بدأ الصبى يسترد شيئاً من قواه . وكلما رأى أليشع جالسا كان يزحف اليه ويلتصق به ثم يدفن رأسه الصغير فى صدره .. وبدأت تتورد وجنتا الصبية ، وتلتمع عيناها وتتابعه أينما ذهب تساعده فى كل عمل ، وكلما انشغل عنها تناديه : بابا .. بابا .

وأحست العجوز دبيب القوة والعافيه يسرى فى أوصالها ، واستطاعت أن تبارح الكوخ لكى تفتقد هذه الجارة أو تلك .. وفي هذه الأثناء أيضا تقدمت صحة الرجل ، وواتته القوة على النهوض والتمشى فى أرجاء الكوخ وهو يستند بيده على الجدار .. لم يبق سوى الزوجة وحدها ، لم تستطع ان تقف على قدميها ، ولكن - حتى هذه - استردت وعيها فى اليوم الثالث ، وفتحت فمها

تطلب الطعام . وفكر أليشع فى نفسه : حسنا .. لم أكن أتوقع أن أضيع كل هذا الوقت فى الطريق .. على اى حال ، لابد لى أن أستأنف الرحيل .

الرحيل

فى اليوم الرابع كانت هناك الاحتفالات الدينية ستجرى فى الكنائس بالعيد الذى يعقب صوم الرسل فى الصيف . وقد راودت أليشع هذه الفكرة : يحسن أن أبقى مع هذه الجماعة وأفطر معهم .. أقوم الآن وأذهب لأشترى بعض الحاجات لنحتفل معا بالعيد ، حتى اذا جاء مساء الغد استأنف رحلتى . وهكذا مضى أليشع الى القرية ، وابتاع شيئا من اللبن ودقيق القمح وبعض الأدام ... ولما رجع ساعد العجوز فى أعمال الطهى ، حتى تخبز الدقيق استعدادا للغد .

وفى يوم العيد ، مضى أليشع الى الكنيسة ، وعاد لكى يتناول الأفطار مع أصدقائه الجدد فى الكوخ . فى هذا اليوم استطاعت الزوجة ان تنهض من مرقدها وتتجول قليلا فى الكوخ . أما الزوج فقد استهل يومه بحلاقة ذقنه ، ثم لبس قميصا نظيفا كانت العجوز قد غسلته ، ثم توجه الى أحد الفلاحين الأثرياء يستثير فيه العطف والرحمة لأنه كان قد أرتهن لديه أرضه ومرعاه . ذهب يلتمس منه أن يسمح له باستغلال أرضه ومرعاه حتى المحصول الجديد .. وعند المساء جاء الرجل الى الكوخ محزون القلب ، ولم يكد يسمع سؤالا عما فعل حتى انخرط فى البكاء لأن الفلاح الثرى لم تكن له قناة ، أجابه فى لهجة قاسية لا تخلو من اهانة : هات ما عليك من مالى ..

ويبدو أن هذا الموقف قد أثار عدة تساؤلات فى ذهن أليشع . كيف يمكنهم الآن أن يعيشوا ؟ سيذهب بقيه الفلاحين لزراعة البرسيم اما هؤلاء فلن يستطيعوا أن يجمعوا الدريس ، لأن مرعاهم مرهون . سوف ينضج الشعير

ويجمع الناس الى مخازنهم - وما أجمل المحصول هذا العام !! – ولكن اصحابنا هؤلاء لا أمل لهم فى شىء لأن الافدنة الثلاث التى يمتلكونها صارت رهينة فى يدى الفلاح الثرى .. واذا مضيت وتركتهم ، فماذا يكون المصير ؟ .. ينحدرون ثانية الى الحالة التى وجدتهم عليها قبلا ..

وأخذت الأفكار تتنازع ذهن أليشع ، وقرر اخيرا ان يمضى هذه الليلة أيضا معهم ، وأن يؤجل رحيله حتى الغد . وذهب الى فناء الكوخ لكى ينام .. ردد صلواته ثم استلقى ينتظر أن يغلبه النعاس ولكن النوم لم يراود أجفانه ، تارة يرى انه لابد له أن يرحل توا لأنه تخلف وقتا طويلا كما أنفق الكثير من المال ، وتارة أخرى يذوب قلبه أسى وحزنا من أجل هؤلاء المساكين ويردد بينه وبين نفسه : يبدو أن هذا الموضوع لن ينتهى .. فى البداية كان هدفي أن احضر لهم بعض الماء ، وأعطى كلا منهم كسرة من الخبز .. ولكن انظر .. كيف تطورت الأمور .. والآن امامى مشكلة افتداء المرعى والحقل .. واذا فعلت ذلك فلابد أن أشترى لهم بقرة .. ولابد للرجل من حصان لكى يحمل على ظهره حزم القمح أو الشعير .. لقد وضعت نفسك - ايها الأخ أليشع - فى مأزق لا مخرج منه ، وانحصرت فى عقدة لا فكاك لك منها .. وقد انصرم حبل أجلك وأنت الخاسر اذا قدمت حساب وكالتك !

ثم نهض أليشع ، وجذب من تحت رأسه معطفه الذى كان يستخدمه كوسادة ، ثم نشره وأخذ يزج بأصابعه فى جيوبه حتى انتشل من احدها علبه السعوط . واخذ قبضه بين أصبعيه قربها الى أنفه ، ظنا منة أن السعوط قد يعينه على جلاء أفكاره .

ولكن بلا جدوى .. لقد ظل يفكر ويفكر ، دون أن يصل الى نتيجه ما يهدأ لها فكره . يجب أن يرحل ولكن الرحمة كانت تقف له بالمرصاد تحول دون خروجه .. لم يعرف ماذا يفعل . وطوى المعطف ثانية ، ووضعه تحت رأسه وظل راقدا على هذا الحال ، لا يغمض له جفن حتى سمع صياح الديكة .. ولكن التعب كان قد اخذ منه كل مأخذ ، وتثقلت عيناه بالنوم ..

وفجأة رأى شخصا يقترب منه ليوقظه ، قد ارتدى ملابس السفر ، يحمل كيسا على ظهره ويتوكأ على عصاه . ثم انفتح باب الكوخ فتحة صغيرة ، تسمح له بالجهد أن ينفذ منها . وقد كان على وشك الخروج عندها انحشر الكيس فى حافة السور ، فحاول أن يخلصه بيد أنه اكتشف أن رباط ساقه قد اشتبك فى شىء ما من الناحية الأخرى ، وبدأ يسقط . جذب الكيس بشدة الا انه تبين أنه لم ينحشر فى السور حقا ، بل كانت الفتاة الصغيرة هى التى تمسك به ، بينما تسيل الدموع من عينيها وهى تصيح : الخبز .. يا بابا .. الخبز . وحانت منه التفاتة نحو قدميه ، واذا هناك الصبى الصغير يتعلق برباط الساق اليسرى ، ويتشبث به بينما صاحب الكوخ والمرأة العجوز يتطلعان اليه من النافذة .. وهب أليشع من نومه ، وتلفت حوله متسائلا ما عسى أن يكون هذا . ثم رفع عينيه شاخصاً الى السماء وهو يتمتم قائلا : هل أبحث عن الله فى البر وعبر البحر بينما افتقده فى داخل نفسى فلا أجده .. رباه !! ماذا افعل ؟

ورقد أليشع ثانية ، وغط فى نوم عميق حتى مطلع النهار. وقام بهمة ونشاط وذهب على عجل الى ذلك الفلاح الثرى حيث دفع فدية الحقل والمرعى وأسترد الأرض لصاحبها . ثم عرج الى السوق وابتاع منجلا بدل المنجل الذى

اضطروا الى بيعه ، وعاد به الى المنزل . أرسل الرجل لحصاد البرسيم ، أما هو فذهب الى القرية حيث ترامى الى سمعه ان حصانا وعربه حصان معروضان للبيع عند الحانة فلم يتردد فى الذهاب وعقد الصفقة مع المالك . واشترى جوالا من الدقيق وضعة على العربة ثم بدأ البحث عن بقرة ..

وبينما كان فى طريق عودته ، صادف امرأتين عرف من لهجتهما أنهما من بنات اوكرانيا ، واستطاع أن يتبين ما تقولان ، كانت احداهما تحكى للأخرى فتقول : فى بادىء الأمر ، يبدو أنهم لم يتعرفوا على شخصه . فظنوه انسانا عاديا أتى يلتمس منهم جرعة من الماء ، ولكنه بعد ذلك بقى معهم ... تصورى يا أختى الأشياء التي اشتراها لهم .. ماذا تظنين ؟ يقولون أنه اشترى لهم حصانا وعربة .. لقد اشتراهما هذا الصباح عند الحانة .. هل يوجد بين الناس رجال على شاكلة هذا الرجل .. ما رأيك ؟ ألا يجدر بنا ان نمر على كوخهم لنلقى نظرة على هذا الغريب ؟!

ولما سمع أليشع هذا الحديث ، شعر بشىء من الضيق يلم بصدره .. لم يشعر بلذة أو سرور عندما أدرك أن الناس يمدحون عمله .. توقف عن البحث عن البقرة ، وعاد الى الحانة مسرعا حيث دفع ثمن الحصان . وبعد ان حل وثاقه . اقتاده الى الكوخ ، ثم اتجه الى الحارة . وقد عقدت الدهشة ألسنة سكان الكوخ ، وهم ينظرون الى الحصان ولكن أحدا لم يجرؤ أن يسأله عما اذا كان هذا الحصان من اجلهم ، ولكن الرجل صاحب الكوخ أسرع الى الباب يفتحه وهو يقول من أين أتيت بهذا الحصان ، يا جدى العزيز ؟

ونظر اليه أليشع نظرة فاحصة ثم قال : ولماذا تسأل ؟ لقد اشتريته وجدته رخيص الثمن .. اذهب واقطع بعض البرسيم وضعه فى المزود حتى يأكل أثناء الليل .. وخذ احمل هذا الكيس الى الداخل .

وحل الرجل وثاق الحصان ، وحمل الكيس ووضعه فى البيدر ، ثم مضى وجمع بعض البرسيم ووضعه فى المزود .

ثم رقد الجميع استعدادا للنوم ، وخرج أليشع الى الفناء واستلقى بالقرب من الباب .

وفي هذه الليلة اصطحب حقيبته معه ، وعندما استغرق الجميع فى النوم ، نهض أليشع واحكم رباط الحقيبة ، وثبتها على ظهره ، ثم أحكم الأربطة على ساقيه ، ولبس حذاءه ومعطفه ، ثم انطلق فى طريقه لا يلوى على شىء . يقتفي أثر زميله الذى سبقه .

العودة

وعندما سلخ أليشع من الطريق ما يربو على ثلاثة أميال بدأ ينبلج ضوء النهار ، فجلس فى ظل احدى الأشجار ، وفتح حقيبته وبدأ يحصى ما بقى معه من نقود ، فوجد أنه لا يملك سوى ٢٧ روبلا و ٢٠ كوبيك . لابد أن يتدبر موقفه ، ويقلب وجوه النظر فيما يجب أن يفعل : حسنا .. لا فائدة فى محاولة عبور البحر بهذا المبلغ الضئيل .. والتسول من أجل السفر أسوأ من عدم السفر كلية .. سيصل صديقى أفيم الى اورشاليم بدونى ، وربما وضع شمعة باسمى فى الهياكل المقدسة .. أما أنا .. ؟! أخشى ما أخشاه ألا أتمكن من الوفاء بهذا العهد فى هذه الحياة .. ألا تنذر خير من ألا تنذر ولا تفى .. خطية .. ولكن الحمد لله انى قدمت هذا العهد الى سيد رحوم .. يغفر آثام الخطاة .

ونهض أليشع ثانية ، وهز حقيبته حتى تثبت على ظهره ثم قفل راجعا . وقد حرص ألا يراه أحد ، فغير طريقه ، وتجنب طريق القريه وجد فى السير الى بلدته . كان الطريق وعرا شاقا ، أو هكذا بدا له عندما بدأ الرحلة مع أفيم ، ولم يستطع اللحاق به او مجاراته فى سرعة المسير . اما الآن فكان يشعر أن معونة الله تصاحبه ، وأخذ يسير فى همة ونشاط . قلما يحس بالتعب . بدأ مسيرته كأنها ملهاة اطفال ، مضى قدما يهز عصاه فى يده ، يقطع فى اليوم أربعين أو خمسين ميلا .

عندما وصل أليشع الى بيته ، كان الحصاد قد انتهى . وانتاب افراد الأسرة جميعا شعورا غامرا بالفرح والسرور بعودته ، والتفوا حوله يسألونه عما حدث

؟ رحلته ، وكيف تخلف فى الطريق ؟ ولماذا رجع دون أن يصل الى أورشليم ؟ ولكن أليشع لم يفصح عن شىء مما حدث ، بل اكتفي بقوله : لم تشأ ارادة الله أن أذهب الى هناك . فقد فقدت مالى فى الطريق ، وتخلفت عن مرافقة زميلى .. أخطأت سامحونى من أجل الله ..

وأخرج أليشع ما تبقى معه من نقود وأعطاها الى زوجته العجوز. ثم بدأ يستفسر عن بعض شئون الدار . كل شىء كان يجرى كما يحب على خير منوال . لم يهمل شىء من العمل ، والجميع كانوا يعيشون فى رابطة حلوة من المحبة والسلام .

وترامت أنباء عودته الى أسرة أفيم فى نفس اليوم . واقبلوا يتساءلون عن أخبار زميله العجوز ، وجواب أليشع لا يتغير : أفيم سريع المشى ، وقد افترقنا قبل عيد مار بطرس بثلاثة أيام . كنت أريد اللحاق به ثانية ، ولكن الظروف لم تكن مواتية . ولما فقدت مالى ، وعدمت الوسيلة للمضى فى الرحلة ، اثرت العودة ..

وقد دهش الناس كيف يتصرف مثل هذا الرجل العاقل على هذه الصورة التى تدل على الغباء .. لم يحسب النفقة !!

لقد بدأ رحلته ولكنه لم يصل الى غايته .. لأنه أسرف وبدد ماله . وهكذا لم تخل قصة أليشع من التعليقات المرة ، وظلت تلوكها الألسنة حينا من الزمن ، ثم بدأ ستار النسيان ينسدل عليها ، وأخذ الناس ينسون كل ما يتصل بها حتى أليشع نفسه ... نسى كل شىء تماما ، وعاد الى عمله كما كان شأنه ، وأقبل

عليه ، يساعده ابنه فى قطع الاخشاب وجمعها لوقود الشتاء ، وساعده النساء فى درس القمح ، ثم أصلح من طلاء المنزل من الخارج ، ووضع النحل تحت غطاء خاص وسلم جاره المناحل العشر التى باعه اياها فى الربيع ، مع جميع الخلايا التى انتجتها . وقد حاولت زوجته أن تنكر الخلايا التى انتجتها هذه المناحل ، الا أن أليشع - بخبرته – الطويلة - كان يعرف جيدا أى المناحل أنتج خلايا وأيها لم ينتج . وبدلا من أن يعضى جاره عشرة خلايا سلمه سبعة عشر خلية . ولما أتم جميع الاستعدادات لموسم الشتاء ، أرسل ابنه ليبحث عن عمل ، بينما انكب هو على عمله فى صفر الأحذية ، وحفر كتل الخشب حتى تصلح للمناحل .

رفيق السفر

في ذلك اليوم ، الذى قضاه أليشع بجوار المرضى فى الكوخ ، ظل أفيم ينتظر عودته . ولم يكن قد قطع شوطا بعيدا عندما جلس ينتظر وينتظر حتى طال به الانتظار وأليشع لم يعد . وأخذ يحدق ببصره فى الطريق وفى المارة حتى كلت عيناه .. وأخذت الشمس تغيب والظلام يبسط أجنحته الكالحة ، وليس هناك أثر ما يدل على أليشع على مدى البصر .

واتناب أفيم الشك حتى قال فى نفسه : لعله مر بى دون أن أراه ، أو لعل أحدهم تطوع باصطحابه فى عربته ، ومضت عربته بى بينما أخذتنى سنة من النوم فلم أرهم ولم يشاهدانى .. ولكن كيف يمكن أن يتجاوزنى فلا يرانى ولا يبحث عنى ؟ فى هذه المنطقة العالية ، التى تتيح للمرء أن يرى عن بعد .. هل أعود ؟ ولكن من يدرينى ؟ ربما سبقنى وفى هذه الحالة لا يمكن ان نلتقى على الأطلاق .. فيزداد الموقف سوءا .. الأفضل أن أواصل السير ، وربما تلاقينا عندما تحين ساعة النوم ، فعند المبيت لا شك فى فرص اللقاء .

وبلغ أفيم احدى القرى ، وأوصى الحارس الليلى ، ان يوقظه اذا رأى كهلا تنطبق عليه أوصاف أليشع الخاصة ، فيحضره اليه فى المسكن الذى نزل به .. ولكن أليشع لم يأت فى تلك الليلة .. ومضى أفيم فى طريقه ، يسأل كل من يقابله عما اذا كان قد صادف رجلا عجوزا صغير الجسم أصلع الرأس . ولكن أحدا لم يدله على مثل هذا المسافر . أخذ منه العجب كل مأخذ ، ولكنه واصل

السير ممنيا نفسه بانه لابد فى أوديسا أو على ظهر المركب . . ومع مرور الأيام تناقص فضوله حتى أنه لم يحاول أن يعير الأمر التفافا .

وفى اثناء الطريق ، قابل أحد الحجاج يرتدى ثوبا فضفاضا ، وقد استرسل شعر رأسه ووضع على رأسه عمامة تشبه عمائم الكهنة . كان هذا الحاج قد ذهب الى جبل اتوس ، وهو الآن فى طريقه الى أورشليم للمرة الثانية . وبعد أن جمعهما اللقاء فى احدى الليالى لم يفترق الرجلان بعد ذلك .

وصل المسافران الى أوديسا ، وكان عليهما ان ينتظرا ثلاثة ايام قبل أن يعتليا ظهر المركب الذى سيقلهما عبر البحر. وقد ازدحمت المدينة بالحجاج الذين اقبلوا من جهات مختلفة . وخطر فى بال أفيم أن يسال من جديد عن صديقه أليشع ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح . استخرج أفيم لنفسه جواز السفر الذى كلفه خمسة روبلات كما دفع ٤٠ روبلا ثمنا لتذكرة الذهاب والعودة من أورشليم واشترى من المؤنه ما يكفى رحلته ، من الخبز والرنجة .

وأخذ الحاج المرافق لأفيم يشرح له كيف يستطيع أن يركب السفينة دون أن يدفع الأجر ، ولكن أفيم رفض أن يصغي لهذه النصائح واجابه فى حزم قاطع : لا .. لقد أتيت مستعدا للدفع .. ولهذا سوف أدفع الأجر .

وأتت السفينة وكدست فوقها البضائع ثم ركب الحجاج بما فيهم أفيم ورفيقه الجديد ، ورفعت المراسى وأقلعت السفينة الى عرض البحر .. ولم تظهر أية بادرة لأليشع ..

ابحرت السفينة طيلة النهار ، فى جو هادىء ممتع .. ولكن عندما بدأ النهار يميل أخذت الرياح تهب وتصعد ، وبدأت الأمطار تسقط ثم تنهمر ، وأخذت السفينة تميل يمينا وشمالا يغمرها ماء المطر . وتسلل الخوف الى قلوب الركاب ، ثم بدأ الذعر يسيطر فى عنف وقسوة ، فولولت النساء وارتفع صراخهن ، وأخذ بعض الرجال - لم يستطيعوا أن يتمالكوا انفسهم - يجرى هنا وهناك يبحثون لأنفسهم عن ملجأ يحتمون به . كان أفيم أيضا قد تملكه الخوف ولكنه أحتفظ برباطة جأشه امام الأخرين فظل فى مكانه على ظهر السفينة الى جوار بعض الشيوخ الذين قدموا من ثاميوف . جلسوا جميعا طيلة هذه الليلة يخيم عليهم صمت مطبق . وطوال النهار التالى لم يغيروا من جلستهم وقد تشبثو بأكياسهم حتى بدأت حدة الريح تهدأ فى اليوم الثالث . وفي اليوم الخامس ألقت المركب مراسيها عند القسطنطينية حيث نزل بعض الحجاج لزيارة كنيستها المشهورة " اجيا صوفيا " التى آلت - فيما بعد - للأتراك . ولكن أفيم ظل فى السفينة لايبارحها ، ولم يشتر سوى بعض الخبز الأبيض . وبعد أن ظلت السفينة هناك أربعا وعشرين ساعة ، أقلعت ثانية نحو البحر ثم وقفت فى أزمير ثم الاسكندرونة وفى نهاية المطاف رست فى ميناء يافا حيث نزل الحجاج . ومن هناك كان عليهم ان يقطعوا ما ينوف على الأربعين ميلا حتى يصلوا المدينة المقدسة أورشليم . لقد راود الخوف قلوب الحجاج ثانية وهم ينزلون الى الشاطئ فقد كانت السفينة عالية كالبناء الشامخ وهم يهبطون من ظهرها الى القوارب التى كانت تتأرجح بشكل ينذر بالخطر ولا يوحى بالطمأنينة . قد يفقد المرء توازنه ويسقط فى البحر .. وبالفعل قد اصيب رجلان بالبلل .. ولكن - فى النهاية - وصل جميع الركاب الى الميناء سالمين .

وبدأ الحجاج رحلتهم على الأقدام ، وفى اليوم الثالث عند الظهيرة وصلوا مشارف المدينة ووقفوا هناك فى دار الضيافة الروسية ، حيث تم اعتماد جوازات السافر . وبعد تناول طعام الغذاء ، زار أفيم الأماكن المقدسة فى صحبة رفيقه . وقبل ان يحل دورهم للدخول الى القبر المقدس ، ذهبا الى البطريركية حيث احتشدت جموع الحجاج ، وقد انفصلت النساء عن الرجال وطلب اليهم أن يجلسوا فى شكل دائرة عراة الأقدام . وأقبل أحد الآباء الرهبان يحمل منشفة فى يده لكى يغسل ارجلهم . وبدأ فعلا يغسل اقدامهم ويمسحها ثم يقبلها . لقد صنع هذا مع كل منهم .. مع أفيم أيضا .. وحينما حل موعد صلاة النوم وقف ناهضا يتمم صلاته ، وقد تكرر هذا أيضا فى صلاة باكر ، تقدم بعدها يضيء الشموع أمام الهيكل ويضع ورقة صغيرة كتب فيها أسماء والديه حتى يكون لهما نصيب فى بركة صلوات القداس .

وفي البطريركية وزع على الحجاج الطعام والنبيذ . وفى صباح اليوم التالى ذهبوا لزيارة الكهف الذى كانت تعيش فيه القديسة ماريا المصرية ، بعد أن عقدت عزمها على حياة التوبة والندم .. وهناك أيضا وضعوا الشموع ورفعوا الصلوات ، ومن هناك ذهبوا الى دير ابراهيم وتأملوا المكان الذي أزمع ابراهيم ان يقدم فيه ابنه اسحق محرقة أمام الله ... وقاما - بعد ذلك - بزيارة المكان الذى ظهر فيه الرب يسوع لمريم المجدلية . كما طافوا بكنيسة القديس يعقوب اخى الرب .

وأمسك الحاج بيد أفيم وجال به فى كل هذه الجهات ، يرشده الى ما يجب أن يفعله أو يدفعه فى كل منها .. وعند منتصف النهار رجعا الى دار الضيافة

حيث تناولا طعام الغذاء . وعندما بدأ الرجلان أهبتهما للنوم حتى يأخذا قسطا من الراحة ، أخذ الحاج يصيح ، ويفتش جيوبه ، ويقلب ملابسه رأسا على عقب وهو يردد : لقد سرقت حافظة نقودى . كان فيها ٢٣ روبلا ، ورقتان من ذوات العشرة روبلات ، والباقى من قطع العملة الصغيرة ..

وأخذ يتنهد ، ويبكى ماله الضائع ، ولكنه لما لم يجد فى ذلك نفعا أو جدوى كف عن الصياح والضجيج ، واخلد الى السكون ثم اضطجع لكى ينام .

حاول أفيم أن ينام ، ولكن صراعا عنيفا كان يدور فى ذهنه ، ولا يسمح لعينيه أن تستسلما للنوم . لقد ألح على فكره هذا الخاطر : ان أحدا لم يسرق شيئا من هذا الحاج !.. بل ولا أعتقد أنه كان يحمل معه أى مبلغ من المال . لم أره يدفع درهما فى أى مكان ذهبنا اليه ، مع انه كان يحثني على الدفع والبذل والسخاء ؟! .. بل اكثر من هذا انه اقترض مني فى احدى المرات روبلا .. ولم يرده لى ..

ولم يكد يمر هذا الخاطر على رأسه ، حتى اخذ يلوم نفسه بعنف : أى حق لى ان أكون ديانا للآخرين ؟ هذه خطية .. لن أفكر فى هذا الموضوع بعد الآن . ولكن عندما بدأت الأفكار تراود ذهنه . بدأت تلف وتدور من جديد حول هذا الحاج . يبدو أنه شديد الحرص على المال .. عندما صاح الحاج يعلن أن حافظة نقوده قد سرقت ، اندهش جدا وبدا له هذا القول غريبا غير محتمل الوقوع .. لاشك أنه لا يملك شيئا من المال على الاطلاق .. أكاد أجزم أن قصته كلها مختلقة ، ولا أساس لها من الصحة .

وقبل أن يحل المساء ، استيقظ الرجلان واتجها صوب كنيسة القيامة العظيمة ، حيث يوجد القبر المقدس ، وقد عقدا العزم على حضور قداس نصف الليل ، ظل الحاج يلازم أفيم ، لا يفارقه فى غدوه ورواحه. وعندما وصلا الى الكنيسة وجداها قد اكتظت بالحجاج .. بعضهم من الروس والبعض الآخر من جنسيات متباينة ، يونانيين وأرمن وأتراك وسوريين وغيرهم .. عبر أفيم

الأبواب المقدسة مع الجماهير الحاشدة . وقادهم أحد الرهبان وأجازهم مناطق حراسة الأتراك ، ووصل بهم الى المكان الذى انزلوا فيه المخلص من على الصليب وكفنوه بالأطياب والحنوط .. وهناك كانت أعداد كبيرة من الشموع المضاءة ، وقد صفت على تسع من الحوامل الكبيرة . وبينما كان الراهب يقودهم كان يشرح لهم ويصف كل الأحداث التى مرت بهذا المكان أو ذاك . ووقف أفيم برهة لكى يوقد احدى الشموع رهبة واجلالا . وبعد ذلك قادهما الراهب الى اليمين ، وصعد درجات السلم الذى يؤدى الى الجلجثة ، حيث كان الصليب موضوعا ... وتحرك قلب أفيم فى عنف ورفع صلاة حارة الى الله . ثم أخذه بعد ذلك لكى يشاهد الشقوق التى أصابت الأرض وامتدت الى أعماقها ، ثم المكان الذى سمرت فيه يدا المسيح وقدماه على خشبة الصليب ، ثم قبر آدم حيث سقطت بضع قطرات من دم المخلص على عظام آدم المسكين .. وبعد ذلك رأى الحجر الذى جلس عليه المسيح عندما وضعوا اكليل الشوك على رأسه ، وعلى قرب منه العمود الذى قيدوه اليه عندما جلدوه ... ثم رأى أفيم الحجر الذى انطبعت عليه آثار قدمى الرب .. وكان الرفاق على وشك أن ينتقلوا الى أماكن أخرى لولا ان حدث - فجأة - هرج ومرج بين الجموع المتزاحمة ، وأخذ الجميع يهرولون الى قبر المخلص نفسه . كان القداس اللاتينى قد انتهى وشيكا . وبدأت صلوات القداس الروسى ، ووجد أفيم نفسه منساقا بين الجمهور الى القبر الذى نحت فى الصخر .

وفى هذه الاثناء ، حاول افيم ان يتخلص من رفيقه الحاج . فقد كانت الوساوس والشكوك تساوره ، وقد هاجت عليه مشاعرة لأنه كان يعتقد أنه

يخطئ الى هذا الحاج بفكره .. ألا أن صاحبه لم يشأ ان يفترق عنه ، بل صاحبه الى القداس الالهى فى القبر المقدس . حاولا أن يشقا طريقهما الى المقدمه ولكنهما فشلا فى ذلك ، فقد تراصت جماهير المصلين ، حتى تعذر على المرء أن يتزحزح من مكانه فى أى اتجاه . ووقف أفيم وقد وجه نظره الى الأمام . وراح يبتهل الى الله .. ولكنه كان يتحسس جيبه من حين الى آخر ، ويتلمس حافظة نقوده . كانت الخواطر تتجاذبه من نشوة الصلاة ، فيقلب الفكر فى الأمر .. أحيانا يظن أن الحاج كان يخدعه . ويظن - تاره أخرى - أن لعله كان يقول الصدق. . وحتى فى هذه الحال قد يحدث له هو ما حدث لرفيقه من قبل ..

فرحة .. لم تتم

وقف أفيم يحملق فى الهيكل الصغير ، الذى يضم القبر المقدس .وأخذ يعد المصابيح الثلاثة والستين التى تضىء فوقه. وبينما يتطلع مشرئبا فوق رؤوس الجماهير . رأى ما أثار الدهشة والعجب فى نفسه . هناك تحت المصابيح ، حيث تشتعل النار المقدسة ، وفى مقدمة الجميع رأى أفيم رجلا كهلا ، رأسه أصلع وسترته رمادية .. لا شبهه أنه أليشع بودروف بعينه ..

ولكن أفيم فكر فى نفسه قائلا : أنه يشبهه تماما .. ولكنه لا يمكن ان يكون أليشع ، فهو لا يستطيع أن يسبقنى لأن السفينة التى ابحرت قبل سفينتنا رحلت قبلها بأسبوع . ولم يكن فى مقدوره أن يلحق بها .. ثم انه لم يركب فى سفينتنا .. لقد رأيت جميع الحجاج الذين على ظهرها ..

ولم يكد أفيم يفيق من دهشته ، ويستبعد وجود أليشع ، حتى رأى العجوز يصلى وينحنى ثلاث مرات . سجد فى المرة الأولى لله ، ثم طامن برأسه نحو الجانبين فى اتجاه الأخوة ، وعندما أدار رأسه الى اليمين ، تعرف أفيم على شخصيته ، وقطع الشك باليقين ، فقد كان هو بعينة أليشع بودروف بلحيته المتموجه السوداء ، التى خطها المشيب عند وجنتيه ، وعند حاجبيه .. لقد رأى عينيه وأنفه وتحقق من ملامح وجهه التى يعرفها جيدا .. نعم انه هو بلا شك .

وأحس أفيم بسعادة غامرة ، لأنه وجد صديقه مره أخرى .. ولكن الدهشة ما زالت تملك على وجدانه . فلا ينفك يسائل نفسه : كيف نجح أليشع فى الوصول قبله ... ولكنه يعود فينظر الى الشيخ ويقول : حسنا فعلت يا أليشع ..

انظر كيف استطاع أن يصل الى مقدمة الصفوف .. لابد أنه التقى بمن يرشده الى هذا الطريق . عندما نخرج لابد أن أجده .. أتخلص من هذا الرفيق المعمم وألتصق بأليشع لعله يرشدنى الى طريقه أصل بها الى المقدمة أنا أيضا ..

وثبت أفيم نظره لا يحوله عن أليشع حتى لا يغيب عن عينيه حتى انتهت صلاة القداس . وبدأت الجموع تتحرك كالموج الداهم ، يتدافع الناس بالمناكب سعيا الى القبر حتى يقبلوه ويتبركوا بلمسه .. ودفعوا أفيم جانبا . وأحس بالخوف يملك على نفسه ومد يده بسرعه يتحسس حافظة نقوده . أخذ يشق طريقه بصعوبة بالغة بين الحشود الكثيفة يريد الوصول الى الخارج . وعندما وصل الى الفناء . تلفت فى كل صوب عسى أن يجد صديقه أليشع .. وسنحت له الفرصه أن يبحث فى داخل الكنيسة أيضا .. دون أن يعثر على أثر له !!
وفى خوارس الكنيسة رأى الكثير من الناس ، صفوفا متباينه ، يأكلون ويشربون النبيذ ، ويقرأون وينامون .. وبين هؤلاء لم يجد أليشع . وهكذا عاد أفيم الى الفندق ، لا يخفى ما بنفسه من الضيق ، وفى تلك الليلة ايضا ، لم يأت اليه الحاج ذو العمامة حسب عادته .. حتى هذا أيضا مضى دون أن يرد الروبل الذى اقترضه .. وترك أفيم وحيدا .

في اليوم التالى ، توجه أفيم مرة أخرى الى القبر المقدس وقد اصطحب معه رجلا عجوزا من تاميوف كان قد تعرف عليه على ظهر السفينة . حاول أن يصل الى المقدمة الا أن الجماهير كانت تدفعه الى الخلف ، ولهذا وقف الى جوار أحد الأعمدة يصلى ويبتهل .. ثم بدأ يحملق بعينيه .. هناك تحت المصابيح .. وفى المقدمة .. وبالقرب من قبر السيد كان أليشع واقفا وقد بسط

ذراعيه ، كما يفعل الكاهن امام المذبح ، ورأسه الأصلع يلمع بين أضواء الشموع .

وهمس أفيم لنفسه فى اصرار : حسنا . الآن لن أدعه يفلت من يدى .. وتقدم يشق طريقه الى الامام ، واستطاع أن يصل بالفعل الى المقدمة .. ولكنه لم يجد أليشع .. لقد مضى بعيدا ..

وتكرر هذا المشهد فى اليوم الثالث ، حين بهت أفيم اذ رأى أليشع فى أقدس مكان من القبر ، وعلى مرأى من جميع الناس ، وقد رفع ذراعيه وشخص بعينيه الى السماء ، كما لو كان يبصر شيئا فى العلاء .. وأشعة الضوء تنكسر وتبرق على رأسه الأصلع ..

وأعمل أفيم فكره واستقر على رأى راجح : لن يستطيع الهرب منى .. سأقف عند الباب وانتظر .. ولا يضل احدنا عن الآخر ..

وذهب أفيم ووقف عند الباب الى أن انصرم منتصف النهار ، وعبر أمامه كل الحجاج الذى كانوا فى داخل الكنيسة . ومع ذلك لم يظهر أليشع !

ظل أفيم فى أورشليم ستة أسابيع ، تمتع فيها بمشاهدة جميع المزارات : بيت لحم ، وبيت عنيا ، ونهر الأردن ، ووضع فى القبر المقدس رداء جديدا حتى يلفه به ذووه عند دفنه . وملأ زجاجة من ماء الأردن ، وأخذ معه حفنة من تراب الأرض المقدسة ، واشترى شمعة أوقدتها تلك الشرارة التى تنبثق من القبر المقدس فى ليلة سبت النور ، ونقش اسمه فى ثمانية اماكن طالبا من

قارئيه أن يذكروه فى صلواتهم ، وانفق كل ما معه من النقود بعد أن احتجز مبلغا مناسبا يكفى نفقات عودته .

ثم بدأ رحلة العودة ، سيرا على الأقدام الى يافا ، ومن هناك أبحر الى أوديسا حيث بدأ طريقه الطويل الى قريته .

بركات فى الطريق

واجتاز أفيم فى عودته نفس الطريق الذى سلكه فى رحلة الحج . وكلما تقدم فى طريقه احس أنه يقترب من بلدته ، فتساوره المخاوف الأولى ، عن الشئون التى تركتها بين يدى ولده حتى يقوم بها فى غيبته . ويتذكر المثل القائل " ما أكثر الماء الذى يضيع أثناء السنه " وقد يحتاج المرء الى وقت طويل ، وربما يقضى حياته كلها لكى يبنى لنفسه بيتا ، ولكنه لا يحتاج الى هذا الوقت الطويل اذا عن له أن يهدم البيت . كانت هذه الأفكار تشغل ذهنه ، فيلح عليه القلق فيما اذا كان ابنه قد نجح - بدونه - فى النهوض بتلك الاعباء .. كيف قضت الأسرة أيام الربيع ؟ وكيف اعتنو بالقطيع خلال أيام الشتاء ؟ وتاقت نفسه الى معرفة ما اذا كان الكوخ قد تم بناؤه أم لا ؟ .. وعندما وصل الى أوكرانيا حيث افترق عنه أليشع فى الصيف السابق ، لم يصدق ما رأته عيناه .. لقد تغير كل شىء حتى رفض أن يصدق أن السكان كما هم لم يتغيروا .. لقد اختفت كل صور المجاعة وآثارها ، وبدا على الناس أنهم يعيشون حياة الراحة والدعة . و لقد أعطتهم الأرض محصولا طيبا ، واسترد الناس قواهم وعافيتهم ، وانزوى فى طوايا النسيان كل ما قاسة الناس من عنت وشقاء .

ثم وصل أفيم - فى احدى الليالى - الى نفس المكان الذى تخلف فيه أليشع . وما كاد يدخل القرية حتى أسرعت اليه احدى الفتيات فى ردائها الأبيض ، وقد انطلقت تجرى نحوه من أحد الأكواخ وصاحت ترحب به : يا أبى .. تعال الى بيتنا ..

كان أفيم يريد مواصلة المسير ، ولكن الفتاة الرقيقة تشبثت به ولم تدعه يمضى . وأخذت تجذبه ، ضاحكة ، نحو الكوخ الذى وقفت على بابه امرأة وبجانبها صبى .. وأومأت المرأة الى الضيف الذى تقتاده صغيرتها وهى تقول : تعال يا جدى ، وادخل .. اكسر معنا خبزا ، وتناول العشاء ثم اقض ليلتك ..

وهكذا دخل أفيم .. ثم خطرت فى باله فكرة انبسطت لها أسارير وجهه : لعلنى أستطيع أن أستدل على أليشع ، أو أجد خيطا يوصلنى اليه .. يخيل الى أن هذا هو الكوخ الذى عرج عليه يطلب جرعة من ماء ..

وأعانته المرأة على التخفف من الحقيبة التى يحملها على منكبيه ، وقدمت له بعض الماء لكى يغتسل ثم دعته الى المائده حيث وضعت فى متناوله كوبا من اللبن وبعض الكعك والأرز .. ولم يجد أفيم بدا من تقديم الشكر على حسن صنيعها ، ولطفها الى أحد الحجاج . ولكنها هزت رأسها فى شىء من الاباء وهى تقول : لدينا من الأسباب ما يحملنا على الحفاوة بالحجاج . لقد كان أحدهم صاحب الفضل الى ارشادنا الى معنى الحياة .. كنا نعيش بعيدا عن معرفة الله ، فصب علينا غضبه حتى بلغنا حافة الموت .. فى الصيف الماضى ، يا سيدى ، أصابنا المرض فاقعدنا حتى عن المحركة ، ولم يكن لدينا لقمة نتبلغ بها أو نسكت بها بطوننا الجائعة .. كدنا نموت جوعا ، لولا رحمة الله التى تداركتنا ، فأرسلت رجلا عجوزا يشبهك فأمدنا بالمعونة - لقد أتى ذلك العجوز فى أحد أيام الصيف القائظة يلتمس منا جرعة ماء ، فهاله ما رأى من حال ، فأخذته الشفقة بنا ومكث معنا لا يفارقنا .. وهبنا طعام لنأكل ، وماء لنشرب حتى تمكنا

من الوقوف على أقدامنا .. ولم يكتف بهذا بل سدد ما علينا من ديون واسترد لنا أرضنا ، ثم اشترى لنا عربة وحصانا وتركهما لنا ..

وهنا دخلت المرأة العجوز ، فقاضعت المرأة الشابة التى كانت تسرد قصتها على أفيم ، بقولها : فى الحقيقة نحن لا نعلم هل كان ذلك الرجل انسانا أم ملاكا من قبل الله – لقد أغدق علينا جميعا من حبه ، وشملنا كلنا بعطفه واحسانه .. ثم مضى عنا دون أن يبوح لنا حتى باسمه ؟! ولذلك فنحن نصلى ولا نعلم عمن نطلب .. أنى اتذكر كل شىء ماثلا أمام عينى حتى الآن .. كنت أرقد هناك أنتظر الموت بين لحظة و أخرى ، عندما دخل علينا رجل أصلع ، ليس فيه ما يلفت النظر ، دخل يطلب جرعة ماء .. اما أنا - الخاطئة - فقد قلت فى نفسى : ما الذى دعا هذا الرجل الى المجىء الينا ؟ ولكن انظر ما صنعه هو بنا !! وما كادت عيناه تقع على ما نعانيه من يأس وشقاء حتى انزل حقيبته ، فى هذه البقعة بالذات ، وفك أربطتها ، و لكن الفتاة الصغيرة قاطعت جدتها العجوز وقالت : لا يا جدتى .. لقد وضعها هنا اولاً ، فى وسط الكوخ ، ثم رفعها على المقعد الحشبى الطويل ..

ثم اشترك الجميع فى مناقشة طويلة ، تذاكروا فيها كل ما قاله لهم او فعل من اجلهم .. اين كان يجلس واين كان ينام ؟ وماذا قال لكل واحد أو واحدة منهم .. وعندما أرخى الليل سدوله ، أقبل الفلاح الى بيته وانضم الى بقية أفراد أسرته ، يروى كيف عاش الغريب معهم ، ثم اختتم ذكرياته ، وهو يمد بصره الى الأفق البعيد ويقول : لو لم يقبل الينا ، لكان مصيرنا المظلم هو الموت فى خطايانا وآثامنا . لقد كنا نتوقع الموت ونحن فى أشد حالات اليأس المطبق ،

نجأر بالشكوى ، ونتذمر بالسخط على الله والناس .. ولكنه أتى وساعدنا حتى نهضنا من كبوتنا ، وعلمنا كيف نعرف الله ، وأدركنا يقينا أن الخير والحب ما زال فى قلوب الناس .. فليباركه الله ! لقد كنا نعيش كالبهائم والسائمه ، ولكنه جعل منا بشر .

وبعد أن انتهى أفيم من العشاء ، أخذوه الى مرقده وانصرفوا عنه الى فراشهم وراحوا فى سبات عميق .. ولكن النوم فارق عينى أفيم .. لم يستطع أن ينتزع أليشع من أفكاره .. بل راوده ذلك المنظر الذى تكرر أمامه ثلاث مرات فى أورشليم ، وهو يرى أليشع واقفا يتضرع فى مقدمة الصفوف .

ووجد نفسه يطارح نفسه : اذا .. فقد سبقنى فعلا .. لقد زرت الأماكن المقدسة ، هذا صحيح .. هل قبل الله هذا الحج منى ، أم لا .. ؟ أما هو ، فلا شك أن الله قد قبل حجته .

وفي صباح اليوم التالى ، ودع أليشع أفراد الأسرة ولكنهم لم يدعوه يغادر البيت دون أن يزودوه ببعض الفطائر التى وضعوها فى حقيبته . ثم انطلقوا الى عملهم ، ومضى هو فى طريقه الى بلده .

استغرقت هذه الرحلة من أفيم عاما كاملا ، وأقبل الربيع التالى ، الذى وصل فى احدى لياليه الى بيته .. لم يكن ابنه فى الدار ، لأنه كان فى الحانة . وعندما عاد الى المنزل كان ثملا مخمورا ولم يجد أفيم بدا أن يسأله ويحاسبه ، فقد كانت كل الدلائل تشير الى اعوجاج سلوكه ، واستغلال حريته وسلطانه أسوأ استغلال أثناء غيبة أبيه . لم يصرف المال فى وجوهه الصحيحة ، بل

بدده وأهمله كما أهمل العمل اهمالا تاما . وأخذ افيم يوبخ أبنه توبيخا شديدا صارما ، ولشد ما ساء فى عينيه أن ابنه كان يجيبه فى تمرد ووقاحة : ولماذا لم تبق معنا ، وتشرف على كل شىء بنفسك ؟ لقد غادرتنا وأخذت كل المال معك ، ثم تأتي بعد ذلك كله تطلبه منى !!

واستشاط الرجل غضبا فهب واقفا وصفع ابنه على وجهه . وفى الصباح توجه أفيم الى العمدة ، يشكو اليه مسلك ابنه المنحرف ، ولكنه بينما كان فى طريقه اليه مر ببيت صديقه أليشع ، وقد رأته زوجته وقرأته السلام وهى فى فناء البيت ثم قالت : كيف حالك أيها العزيز ؟ لعلك وصلت الى أورشليم فى أمن وسلام . فتوقف أفيم عن السير وأجابها : نعم .. الحمد لله . لقد وصلت الى هناك ، ولكن زوجك العجوز اختفى فجأة عن ناظرى فلم أجد له أثرا ، ولكنى شكرت الله اذ سمعت أنه رجع الى بيته سالما .

وراق الحديث للمرأة ، فاستطردت تقول : نعم .. لقد عاد .. رجع منذ زمن طويل .. رجع - فيما اعتقد – بعد عيد السيدة العذراء بقليل . وقد شكرنا الله كثيرا على سلامته . فى الواقع كان يخيم على البيت جو من الكآبة والانقباض أثناء غيبته .. اننا لا نتوقع ولا نريده ان يجهد نفسه بالعمل الآن . فقد مضت أيام شبابه وقوته .. على أى حال ، هو رب الاسرة ، والبيت يزداد بهجة وهو فيه . حتى الولد ، فرح جدا بعودة أبيه الشيخ ، لقد كان يردد دائما : ان البيت مظلم كأن الشمس لا تدخله ، ما دام أبى بعيدا عنه .. لاشك أن البيت كان مقبضا بدونه ، كلنا شغوف بالعجوز . وكلنا نخدمه ونعنى به بكل طاقتنا .

فسألها أفيم : وهل هو الآن فى البيت ؟

وحسب عادتها كانت تحب الحديث ، فانتهزت الفرصة لتجيب : نعم ، يا صديقى العزيز .. انه مع النحل يجمع الخلايا ، وهو يقول ان الخير كثير وفير هذا العام . لقد أعطى الله للنحل قوة ، لا يذكر زوجى انه رأى لها مثيلا من قبل .. شكرا لله أنه لا يجازينا حسب خطايانا .. هكذا يقول دائما .. اسمع يا جارنا العزيز ، انه سيسر جدا لرؤياك .

وعبر أفيم الممر الى الفناء ثم اجتازه الى حيث كان أليشع مشغولا بالمناحل وكان أليشع هناك ، فى سترته الرمادية ، دون أن يلبس قناعا على وجهه ، أو قفازا فى يديه ، يقف تحت أشجار البتولا وقد رفع عينيه الى السماء ، وبسط ذراعيه ، ورأسه الأصلع يلمع .. تماما كما رآه أفيم فى القبر المقدس فى أورشليم . وقد تسللت أشعة الشمس خلال فروع الأشجار ، لكى تحل عليه كألسنة من نار .. نفس المنظر الذى تراءى له هناك فى الأرض المقدسة .. وأخذت اسراب النحل الذهبية تحوم حول رأسه كأنها هالة من نور !

ووقف أفيم مشدوها ، وقد انعقد لسانه فلم ينبت ببنت شفة ، حتى قطعت الزوجة هذا الصمت تنادى زوجها : هوذا صاحبك قد حضر . واستدار أليشع ، وقد اضاءت وجهه معالم البشر . وأقبل مهرولا نحو أفيم ، وهو يلتقط النحل من لحيته فى رفق وهدوء . وأخذ يصافحه وهو يقول : طاب يومك يا صديقى .. طاب يومك يا عزيزى .. هل وصلت سالما ؟

وأخذ أفيم يهز يدى أليشع فى اشتياق وهو يقول : لقد قادتنى قدماى هناك .. وقد أحضرت لك معى بعضا من ماء الاردن .. لابد أن تاتى الى منزلى لكى اعطيك اياها .. ولكن اذا كان الله قد قبل جهدى .. وقاطعه أليشع قائلا : حسنا . شكر لله .. الرب يعوضك عن تعبك . وبعد لحظة صمت ، عاد أفيم يقول : لقد كانت قدماى هناك .. أما روحى .. أو لعلها روح أخرى كانت هناك ايضا .

وأسرع أليشع يقول : ان هذا عمل الله وشأنه .. دع هذا الأمر جانبا .. انه عمل الله ..

وعاد أفيم يقول : فى طريق عودتى .. تصور انى نزلت فى نفس الكوخ ... الكوخ الذى تخلفت أنت فيه ..

واضطرب أليشع واجاب مقاطعا اياه : انها ارادة الله يا صاحبى .. ارادة الله . تعال يا صديقى واسترح قليلا فى داخل الكوخ فأقدم لك شيئا من العسل الذى جمعناه هذا العام .

وهكذا حول أليشع دفة الحديث الى الكلام عن شئون البيت . و ندت عن صدر أفيم زفرة عميقة ، وكف عن الكلام عن سكان الكوخ . ولم يذكر له كيف رآه فى أورشليم . ولكنه أدرك الآن ، ان أحسن طريقة لكى يحفظ عهده امام الله ، لكى يتمم مشيئة الله ، أن المرء - ما دام حيا - يحب قريبه كنفسه ، و يصنع الخير للجميع .